بلاغة النهايات
في خطاب الزهراء عليها السلام

أ.م.د. تغريد عبد الأمير مرهون
جامعة كربلاء – كلية العلوم الإسلامية

The eloquence of endings in the speech of Al-Zahra (PBBUH)

Asst. Prof. Dr. Taghreed Abdul Amir Marhoon
University of Karbala

ملخص البحث

تحمل النهايات في الخطاب خلاصة الكلام وعواقب الأشياء، فهي آخر ما يقرع السمع وما يبقى في العقل والقلب، وفي ساحات الصراع ضد السلطات المستبدة يكون لخطاب النهايات أثره في تثبيت الحقيقة ودعم الحجة بما تضمن من عناصر خطابية تمارس تأثيرا كبيرا في المتلقي. وخطاب الزهراء عليها السلام اختتم بنهايات مختلفة يهيمن على أكثرها الاستشهاد بالآيات القرآنية بتقنية التضفير الخطابي التي تجعل من النص القرآني مرآة لحديثها عليها السلام، وهي ممارسة خطابية للاستقلالية النسبية عن الذات لها أشكالها من الخصوصية والتتابع، من أجل التأثير في الجمهور المشكك بأحقية الادعاء الفاطمي، أو تعبير عن ارتباط الذات المقدسة مع التعاليم الإلهية وكأنهما شيء واحد، فضلا عن النقد المزدوج الذي وجهته الزهراء للسلطة وجمهور الناس فتآزرت بذلك صرامة المواجهة مع إرادة التغيير وبلاغة الباتوس المتجلية فيه. فجاءت الدراسة على محورين الأول منهما نهايات في بنية الخطاب وجغرافيته، والثاني نهايات ضمن بنية الخطاب ومفاصله المختلفة لتحقق دراسة للنهايات بشكل مختلف.

إن خطاب الزهراء في المدينة كان الأقوى تأثيرا ليس في السلطة فحسب وإنما في جمهور المسلمين ولذلك وجدنا أن هناك استجابات مختلفة منهم تجاهه لكنها عليه السلام وجدتها غير مؤثرة لتغيير واقع السلطة فأعرضت عنهم غضبا وأسفا على أمة فرطت في حق الولاية الإلهية.

Abstract

The endings in a speech carry the summary and the consequences of things. They are the last thing that rings in the ear and what remains in the mind and heart. In arenas of struggle against tyrannical authorities, the speech of endings has an impact in establishing the truth and supporting the argument, including rhetorical elements that exert a great influence on the recipient. Al-Zahra's speech (PBUH) concluded with different endings, most of which are dominated by the quotation of Qur'anic verses using the rhetorical braiding technique that makes the Qur'anic text a mirror of her speech (PBUH). It is an oratorical practice of relative independence from the self, with its forms of specificity and sequence, in order to influence the public who are skeptical of the validity of the Fatimid claim. It can be an expression of the connection of the sacred self with the divine doctrines as if they were one thing. This is in addition to the double criticism that Al-Zahra directed to the authority and the general public. Thus, the severity of the confrontation combined with the will for change and the manifeste eloquence of Patos. To achieve a study of endings in a different way, the study was based on two axes, the first of which was endings in the structure and geography of the discourse, and the second was endings within the structure of the discourse and its various aspects. Al-Zahra's speech in Medina had the strongest impact, not only on the authority, but

also on the Muslim public. Therefore, we found that there were different responses from them towards it, but she, (PBUH), found it ineffective in changing the reality of the authority, so she turned away from them in anger and regret for a nation that neglected the right of divine guardianship.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين

وبعد...

فإن النهايات روح الخطابات وخلاصتها ومكمن حجتها وتأثيرها، والإطار البلاغي لها يزيدها تأثيرا وتثبيتا في العقل والقلب ومن هذا المنطلق جاءت أهمية هذا الموضوع ليكون منطلقا لدراسة النهايات في خطاب السيدة الزهراء عليها السلام وبيان بلاغتها وتأثيرها، فجاءت الدراسة على محورين الأول منهما نهايات في بنية الخطاب وجغرافيته، والثاني نهايات ضمن بنية الخطاب ومفاصله المختلفة لتحقق دراسة للنهايات بشكل مختلف، فمحاور هذه الدراسة قامت في البدء على الحديث عن بلاغة النهايات في خطابها مع السلطة(الخليفة) وكشف زيف الادعاءات الباطلة وكيف كان منع الإرث مقدمة لقمع ديني وسياسي وخطابها مع المسلمين وممارسة الإقناع بهدف فتح الوعي على حقيقة السلطة وبيان مظلومية أهل البيت، ونهاية خطابها عند قبر الرسول ومع زوجها أمير المؤمنين(عليهم الصلاة والسلام) وبلاغة الاستعطاف والحزن.

وفي المحور الثاني سلطت الدراسة الضوء على نهايات مختلفة وردت في خطاب الزهراء وهي نهاية العمل بالتشريعات وآثارها، وعاقبة الرسول صلى الله عليه وآله ونفاق بعض المسلمين وعاقبتهم السيئة، والنهاية الافتراضية الجميلة فيما لو اتبعوا وصية النبي في تنصيب من اختاره الله للخلافة، والعاقبة الحتمية والنهاية المأساوية والواقعية لهذا التخلف عن هذه الوصية، بهدف إلغاء فاعلية تأثير السلطة وخلق تأثير بديل يتمثل بالرجوع إلى من أوصاهم الرسول بولايته.

ومن الله التوفيق

المبحث الأول: بلاغة النهايات في بنية الخطاب

ينبغي على البليغ أن يختتم كلامه في أي مقصد كان بأحسن الخواتم فإنها آخر ما يبقى في الأسماع، وأكثره تأثيرا، وربما حفظت من بين سائر الكلام لقرب العهد بها فلا جرم وقع الاجتهاد في رشاقتها وحلاوتها وفي قوتها وجزالتها وينبغي تضمينها معنى تاماً يؤذن السامع بأنه الغاية والمقصد والنهاية،[1] والنهايات في خطابات الزهراء حملت هذه المقاصد بغية التأثير والإقناع، وإثبات موقفٍ مضادٍّ للسلطة اعتراضا على سياستها في غصب الحقوق السماوية والفردية، مؤطرة بفنون بلاغية مختلفة أسهمت في توكيد المعنى المقصود وإتمامه.

النهاية الغاضبة

في خاتمة خطبتها الفدكية قالت عليها السلام:((معاشر المسلمين المسرعة إلى قيل الباطل المغضية على الفعل القبيح الخاسر ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[2] كلا بل ران على قلوبكم ما أسأتم من أعمالكم، فأخذ بسمعكم وأبصاركم، ولبئس ما تأولتم، وساء ما به أشرتم، وشر ما منه اغتصبتم، لتجدن والله محمله ثقيلا، وغبه وبيلا، إذا كشف لكم الغطاء، وبان ما وراءه الضراء، وبدالكم من ربكم ما لم تكونوا تحتسبون ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾[3]))[4].

الخطاب إلى معاشر المهاجرين والأنصار الذين وافقوا السلطة على قرارها بمنع السيدة الزهراء عليها السلام إرثها وسكتوا عن حقها فبقي ظلمها قائما لتضفر خطابها في الخاتمة بآيات من الذكر الحكيم تقوي من معنى الخسران ويكسب الخطاب مشروعية دينية تثبت أحقيته؛ إذ إن التضفير الخطابي يقوم على((الجمع بين خطابين مختلفين ينعكس إحداهما على الآخر الذي يكون له بمثابة المرآة))[5]

والاستمداد القرآني في خطاب الزهراء يشير إلى خلاصة موقف المسلمين منها ومن مشروعية الحقوق المغصوبة فهي تذكر في كلامها آية التدبر في القرآن والعمل بما يريده من المسلمين، فالقرآن نص على ولاية الإمام علي عليه السلام وعبر عنها بإتمام النعمة وإكمال الدين وعلى مدارها مصير المسلمين والقرآن لم يفرق بالإرث بين المسلمين والقرآن حث على مودة أهل القربى ولكن أغلب المسلمين قلوبهم مقفلة عن الحق ساكتة عن الباطل أو ساعدوا في تمكنه بمنعها فدكا وتنصيب غير الإمام علي على رأس السلطة، كل ذلك كان بفعل منهم أو بمشورة بعضهم وسكوت القسم الآخر، واستعارة القفل والرين للقلوب عبرت عن المعنى أبلغ تعبير، فهي لم تكن أداة للتخييل وتزيين الخطاب بقدر ماهي حجة استعملت للتأثير والإقناع، فباقترافهم الذنب تلو الآخر أصبحت أعمالهم السيئة وكأنها صدأ يتراكم على القلب فيحجزه عن إدراك الحق وتمييز الباطل أو قد يكون مشاركاً في صناعة الشر، وهذه استعارة وسيلتها تجسيد المعنويات في صورة بليغة عبرت عن واقعهم ولخصت موقفهم من قضية السيدة الزهراء عليها السلام.

لتستشرف لهم عاقبة أعمالهم في الآخرة أمام الحق سبحانه بعد كشف حقيقتها، بمؤكدات تزيل إنكار المخاطبين وباستلهام قرآني يبين عاقبة الخسران لأهل الباطل.

وإن هذه الخاتمة تعد من أفضل الخواتيم تأثيرا في نفوس المتلقين بلحاظ الزمان والمكان والحدث فقد ألمت فيها الزهراء بأطراف الموضوع وجاءت موجزة للغاية، وفي الوقت نفسه جامعة للأفكار والعناصر البارزة في الخطبة وكأنها أرادت أن تنهي خطبتها بالوتيرة بنفسها من الحماس والنقمة وتحفيز المشاعر ولهذا كان ختام الخطبة

موفقا بعد أن شدت الأذهان وامتلكت الأسماع ففيه أججت المشاعر، وأثارت العواطف[٦]، فالخاتمة ((هي ثمرة الحجاج التي نضجت في المراحل السابقة))[٧].

النهاية العاطفية

وفي خاتمة شعرها الذي قالته عندما عطفت على قبر النبي صلى الله عليه و آله جاءت مؤطرة ببلاغة الباتوس الذي يقوم على مجموعة من الانفعالات التي يرغب الخطيب إثارتها لدى مستمعيه ويحرك مشاعرهم[٨]، فبخطاب مكتنز بالعاطفة والحزن في طياته دعاء من قلب موجوع على حال الأمة ومآلها قالت[٩]:

وكان جبريل بالآيات يؤنسنا فقد فقدت وكل الخير محتجب

فليت قبلك كان الموت صادفنا لما مضيت وحالت دونك الكثب

فبشخصه الكريم يجتمع الخير والفضائل والحق والنور الذي يؤنس المؤمنين في مقابل ظلمات الجهالة والنفاق وبفقدانه يذهب الخير وينقلب حال أمته وتسيطر عليهم الأهواء وحب الدنيا فيصبح الموت أمنية، ومرة أخرى ترسم الاستعارة صورة الختام بريشة اللوعة والأسى فهي تتمنى أن تصادف الموت ليأخذها قبل أن تشهد مواقف ظلم السلطة لحقوها وخذلان من كانوا يظنون أنهم قريبون من أبيها وأنهم من أتباع سنته وإذا بهم ينقلبون على أهل بيته ويظلمون ابنته وابن عمه عليهما السلام. وهذه صورة مثيرة للمشاعر تبعث على الحزن لحال ابنة النبي الكريم شهدت بعد أبيها غربة ذاتية من مجتمع أسهم في أذاها.

النهاية الحزينة

وبالدعاء أيضا تختتم السيدة الزهراء عليها خطابها مع زوجها عندما رجعت من المسجد النبوي بعد خطبتها في الناس حزينة راغمة حبس عنها المهاجرون والأنصار نصرتهم

وتقاعسوا عن حقها قائلة:((مات العمد ووهن العضد شكواي إلى أبي وعدواي إلى ربي اللهم أنت أشد منهم قوة وحولا وبأسا وتنكيلا))[١٠]

خاتمة مشحونة بالألم والحزن محتفلة بالمحسنات البديعية التي تزيد من إتمامها للمعنى وتأثيرها، من السجع بين(العمد - العضد) و(أبي - ربي) والجمع بين المتناسبات تحت راية مراعاة النظير(قوة - حولا- بأسا- وتنكيلا) والقوة الإيقاعية للتوازي[١١] ومصحوبة بالدعاء على الظالمين واستمداد القوة والثبات من الله سبحانه والركون إليه تعالى وهو خير السند والمعتمد، فهذا التحشيد البلاغي يفجر الطاقات الحجاجية الكامنة في الخطاب، وهي خاتمة ناسبت الموقف الذي جاءت فيه.

النهاية المأساوية

ويحقق التمثيل بـ((الشاهد عبارة الإقناع؛ لأنه يعمل على الإثبات وإزالة الشك ويمثل لغة الحضور والقادر على تغييب لغة الخصم))[١٢]

ففي خاتمة خطابها مع نساء المهاجرين والأنصار عندما جئن لعيادتها في مرضها قالت: ((أما لعمري لقد لقحت، فنظرة ريثما تنتج، ثم احتلبوا ملء القعب دما عبيطا وذعافا مبيدا،هنالك ﴿يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾[١٣] ويعرف التالون غِب ما أسس الأولون ثم طيبوا عن دنياكم أنفساً، واطمئنوا للفتنة جأشا، وأبشروا بسيف صارم، وسطوة معتد غاشم وبهرج شامل، واستبداد من الظالمين، يدع فيئكم زهيدا، وجمعكم حصيدا، فيا حسرة لكم، وأنى بكم، ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾[١٤]))[١٥]

نهاية مأساوية تستشرف المستقبل عبر معطيات واقع المسلمين والأيام العصيبة التي عاشتها الزهراء وسط الظلم والخذلان من السلطة والناس فبعد أن زحزحوا الخلافة عن

رواسي الرسالة وأبعدوها عن صاحبها سيرون عاقبة أمرهم.

فابتدأت الخاتمة بـ(أما) الاستفتاحية التي يحمل ما بعدها خبرا مهما، وقد أكد بالقسم ليزيد من أهمية المعنى المراد، فبعد أن أخذت الخلافة واستتب أمرهم وعبرت عنها ب(لقحت فنظرة ريثما تنتج) برداء الاستعارة التمثيلية التي تصور أخذهم الخلافة غصبا وتنصيب من لم يرد بحقه نص منزل وتدبير هذا الأمر وتمام ما أرادوه باللقاح ونتاجه، وبتتابع فترات السنين يحصدون ما عملوا دماء تراق من أجل الخلافة والحكم ويتجرعون السم والصبر على أذى الحكام؛ لأن الخلافة لم تجرِ على المسار الإلهي الذي يجب أن تسير عليه على سبيل الكناية، وتعرف الأجيال اللاحقة جريرة ما اقترفه الأولون عن حرف الحكم في الأرض عن مساره المقدس والسير خلف الأهواء والفتن.

وبطريقة المجاز المرسل أو الاستعارة التهكمية تنبئ عما يحدث في المستقبل عبر التبشير بأحداث مرعبة تثير بها الخوف والترقب لدى المخاطب فتبشر بالقتل والظلم الذي يلحق بهم والفتن واستبداد الظالمين فتهلك الأموال والأنفس، فـ(جمعكم حصيدا) كناية عن أن الظالمين يكثرون القتل فيكم وفي ذريتكم فتنتهي الخاتمة بأن مصيركم الحسرة على أعمالكم وسوء الاختيار وهنا استلهام قرآني يزيد من القوة الحجاجية في الخطاب.

الخاتمة هنا جاءت متناسبة مع المضمون، محتفلة بالجانب الصوري والإيقاعي الذي يزيد من القوة الإقناعية للخطاب، فـ((إن المعصومين عليهم السلام لا يعنون بالأداة الفنية بما هي مجرد أداة، بل يوظفونها من أجل الموضوع مما يجعل لنتاجهم طبيعته الخاصة المتفردة))[١٦]، إن السيدة الزهراء استطاعت عبر هذه

الخاتمة إثارت الخوف في نفوس المتلقين (نساء المدينة) اللاتي نقلن الخطاب إلى أزواجهن فجاءوا معتذرين غير نادمين ولا يعملون على التغيير لإصلاح حال الأمة لذلك لم تقبل اعتذارهم قائلة:((إليكم عني فلا عذر بعد تعذيركم ولا أمر بعد تقصيركم))[١٧].

ليكون للباتوس بلاغته المؤثرة بعد المعرفة بسايكولوجية المخاطبين وأحوالهم وهذه المعرفة((شرط أساسي لنجاح الحجاج وبلاغة الباتوس وهي تقتضي معرفة بالمبادئ العامة المنظمة لبناء العاطفة حجاجيا في الخطاب ووصفاً للمؤشرات التي تبث الأهواء في المخاطب))[١٨] والبناء الإيقاعي المؤثر من الجناس بين (عذر- تعذيركم) والسجع بين(تعذيركم - تقصيركم) والتوازي عبر المتواليات الإيقاعية ذات الدلالة المتنامية.

فحملت هذه الخاتمة حسن الاعتقاد بالسيدة الزهراء وتفوقها على خصمها بعد إكمال المعنى وإتمام الحجة عليه وثبات الموقف وصلابته فشكلت بذلك بلاغة الانتصار على الآخر والتأثير فيه، فلا غاية لها عليها السلام بعد ذلك فالكلام قد انتهى بعد تجديد ذاكرة الجمهور((من خلال تلخيص ما تقدم سرده بإيجاز))[١٩].

المبحث الثاني // النهايات المختلفة في خطاب الزهراء

هناك نهايات في ثنايا الخطابات التي رويت عن السيدة الزهراء تؤشر إلى حالات اكتمال موضوعاتها بنهايات تختلف عن النهايات في الموقع الجغرافي للخطاب.

وتكون متناسقة مع البداية والموضوع، تخضع هذه النهايات((لخطوط هندسية متواشجة فيما بينها))[٢٠] داخل الخطاب منها:

التذييل

في قولها عليها السلام بعد مقدمة خطبتها الفدكية في مسجد الرسول عن

نعم الله وهدايته لعباده:((ثم جعل الثواب على طاعته ووضع العقاب على معصيته ذيادة لعباده من نقمته و حياشة لهم إلى جنته))[٢١]

وهذا تذييل للمقدمة والمصطلح البلاغي للتذييل قائم على((الإتيان بجملة مستقلة بعد إتمام الكلام لإفادة التوكيد وتقرير لحقيقة الكلام))[٢٢] والحديث عن الطاعة والمعصية ومآلهما بعد الحمد لله على سبوغ نعمه ومضاعفة العطاء وبيان حقائق الإيمان بالله ورسوله والإخلاص في ذلك، خالق الخلق وهاديهم من دون الحاجة إليهم ليذود بهم عن معصيته ويدخلهم جنته، فزاد التذييل هنا من توكيد المعنى المراد.

عواقب التكليف

من النهايات ذكر عاقبة الأمور في قولها:((فجعل الله الإيمان تطهيرا لكم من الشرك والصلاة تشييدا للدين والعدل تنسيقا للقلوب وطاعتنا نظاما للملة وإمامتنا أمانا للفرقة والجهاد عزا للإسلام والصبر معونة على استيجاب الأجر والأمر بالمعروف مصلحة للعامة وبر الوالدين وقاية من السخط وصلة الأرحام منسأة في العمر و منماة للعدد والقصاص حقنا للدماء والوفاء بالنذر تعريضا للمغفرة وتوفية المكاييل والموازين تغييرا للبخس والنهي عن شرب الخمر تنزيها عن الرجس واجتناب القذف حجابا عن اللعنة وترك السرقة إيجابا للعفة وحرم الله الشرك إخلاصا له بالربوبية فاتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون وأطيعوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه فإنه ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[٢٣]))[٢٤]

فوضعت عاقبة لكل عمل أي مآله ونهايته فكان كما الآتي:

الإيمان ⟸ تطهير من الشرك

الصلاة ⟸ تنزيه عن الكبر

الزكاة ⟸ تزكية النفس

الصيام ⟸ تثبيت للإخلاص

طاعة أهل البيت ⟸ نظام الملة

إمامتهم ⟸ أمان من الفرقة

ثم يذيل الخطاب بالأمر بالتقوى وطاعة الله واجتناب ما نهاهم عنه من الإخلال في العقيدة والعمل وباقتباس قرآني مباشر يشير إلى المنبع الصافي الذي يجب أن ينهل منه المسلمون ويأخذوا منهم الأحكام، إلى الذين يخشون الله حق خشيته، إلى العلماء الربانيين أهل البيت عليهم السلام كما أشارت إلى ذلك بعض الروايات

النهاية السعيدة

من النهايات السعيدة في خطاب الزهراء عليها السلام ذكرها لبعثة أبيها علما من الله تعالى بمآل الأمور فقالت:((ابتعثه الله إتماما لأمره وعزيمة على إمضاء حكمه وإنفاذا لمقادير رحمته فرأى الأمم فرقا في أديانها عكفا على نيرانها عابدة لأوثانها منكرة لله مع عرفانها فأنار الله بأبي محمد ص ظلمها وكشف عن القلوب بهمها وجلى عن الأبصار غممها وقام في الناس بالهداية فأنقذهم من الغواية وبصرهم من العماية وهداهم إلى الدين القويم ودعاهم إلى الصراط المستقيم ثم قبضه قبض رأفة واختيار ورغبة وإيثار فمحمد ص من تعب هذه الدار في راحة قد حف بالملائكة الأبرار ورضوان الرب الغفار ومجاورة الملك الجبار صلى الله على أبي نبيه وأمينه وخيرته من الخلق وصفيه والسلام عليه ورحمة الله وبركاته))[٢٥]

فكانت بعثته نهاية لظلمات الجهالة والضلال بنور جلى عن البصائر غشوات العمى وأخذ بأيدي الناس نحو طريق الهداية والرضوان الإلهي فكانت نهاية سعيدة موشاة بمقاطع موسيقية كوّنها السجع بأنواعه مثل(أمره- حكمه) و(أديانها - نيرانها- أوثانها -عرفانها) و(بهمها-

غممها) و(الهداية - الغواية - العماية) و(القويم - المستقيم) و(اختيار - إيثار) والتوازي التركيبي الذي يعمل على توليد تنامي الدلالات بتنامي البنيات اللغوية في الخطاب ليرسما بذلك صورة سمعية تهز أوتار القلوب.

ومن النهايات الجميلة قولها عليها السلام في ولاية الإمام علي للمسلمين بعد النبي صلى الله عليه وآله:((تالله لو مالوا عن المحجة اللائحة وزالوا عن قبول الحجة الواضحة لردهم إليها وحملهم عليها ولسار بهم سيرا سجحا لا يكلم حشاشته ولا يكل سائره ولا يمل راكبه ولأوردهم منهلا نميرا صافيا رويا تطفح ضفتاه ولا يترنق جانباه ولأصدرهم بطانا ونصح لهم سرا وإعلانا ولم يكن يتحلى من الغنى بطائل ولا يحظى من الدنيا بنائل غير ري الناهل وشبعة الكافل ولبان لهم الزاهد من الراغب والصادق من الكاذب ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٢٦]))[٢٧]

نهاية سعيدة إذا استجاب المتلقون للتغيير و ساروا على ما فرض الله لهم من اتباع أوامره ومن نصبه وليا عليهم، تذكر السيدة الزهراء العاقبة السعيدة لولاية علي عليه السلام على الأمة الإسلامية والسير السجح هو السير السهل وبطريقة الاستعارة التمثيلية يصور الخطاب سير الإمام بالمسلمين نحو جادة الحق والعدالة والإنصاف، ويجعلهم ينهلون من عذب الأمور في العلم والعمل ويصدرون ممتلئين بالعقيدة والدين ليس في ذلك شائبة ولا كدر لحمله لواء الإمامة ولقربه من حجر الرسالة فـ((لو أنهم بايعوه للخلافة وحكم الإمام الأرض لفتح الله على أهلها بركات الأرض والسماء لتضفر خطابها بخطاب قرآني يدعم حجتها ويكشف

مضمون الكلام، وكأن حكم على هو صورة الفردوس المفقود))[٢٨]

وبإيراد المتضادات(الراغب - الزاهد)(الصادق - الكاذب) تخف وتيرة خطاب الأمان في ظل دولة الإمام المفترضة لتكون حادة في ظل واقع مأساوي مؤلم عاشته ابنة الرسول بعد رحيله من سلب الحقوق وترك طاعة الله ورسوله.

وهناك نهايات حزينة ومأساوية وردت في الخطاب منها ما ذكرته السيدة الزهراء بعد وفاة الرسول قائلة:((فلما اختار الله لنبيه دار أنبيائه، ومأوى أصفيائه ظهر فيكم حسيكة النفاق، وسَمُل جلباب الدين، ونطق كاظم الغاوين ونبغ خامل الأقلين وهدر فنيق المبطلين فخطر في عرصاتكم واطلع الشيطان رأسه من مغرزه هاتفا بكم فألقاكم لدعوته مستجيبين وللغِرة فيه ملاحظين ثم استنهضكم فوجدكم خفافا وأحمشكم فألفاكم غضابا،فوسمتم غير إبلكم وأوردتم غير شربكم.

هذا والعهد قريب والكلم رحيب والجرح لما يندمل والرسول لما يقبر ابتدارا زعمتم خوف الفتنة ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[٢٩]))[٣٠]

الخطاب يصور ما جرى على أهل بيت الرسالة عندما فقدوا عميدهم وبفن التسجيل البديعي صورت ما فعلوه بهم والتسجيل باصطلاح البلاغيين يعني:((تطويل الكلام والمبالغة فيما سيق من أجله من مدح أو ذم وهو نوع من الإطناب))[٣١]

فبموت الرسول ظهر نفاق الكثير من الناس وتسجل الزهراء صفاتهم السيئة فهم قد خرقوا ثوب الدين الذي كانوا يتسترون به وأخذوا يمشون بين الناس جهارا رافعين أصواتهم في معاداة أهل البيت، فهؤلاء المنافقون أهل للاغترار

بالشيطان ومكائده لأن((الشيطان لما أراد غوايتكم وجدكم خفافا من ثقل الإيمان فلذا سهل عليه استنهاضكم وغوايتكم))[٣٢]

فحادوا عن طريق الحق والعدل وفي قولها:(فوسمتم غير إبلكم وأوردتم غير شربكم) تلميح إلى عدم اختيارهم الإمام علي للخلافة بعد الرسول صلوات الله عليهما وتنصيب غيره

ومن النهايات المؤلمة ما سيحل بالأمة الإسلامية بعد أن أبعدوا المستحق لها وتنصيب غير المستحق لها فضلا عن غصب حقوقها وإرثها قائلة: ((لتجدن والله محمله ثقيلا، وغبه وبيلا، إذا كشف لكم الغطاء، وبان ما وراءه الضراء، وبدالكم من ربكم ما لم تكونوا تحتسبون ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾[٣٣]))[٣٤]

فما فعلوه في قربى الرسول سيكون ثقيلا عليهم في الآخرة، وفي موضع آخر وبأسلوب التهكم تذكر الزهراء نهاية حزينة لمن بدلوا ما أمر الله به قائلة:((وأبشروا بسيف صارم، وسطوة معتد غاشم وبهرج شامل، واستبداد من الظالمين، يدع فيئكم زهيدا، وجمعكم حصيدا، فيا حسرة لكم))[٣٥]

فالعاقبة للخسران والتعرض لظلم الحكام وحد سيوفهم فلا يبقون لهم من باقية استشرافا لواقع أمة استبدلت أخا رسول الله بغيره.

ومن النهايات التي تثير مشاعر المتلقي وتهز وجدانه الحديث بحزن ولوعة واستنصار الله عز وجل فيما جاء في نهاية حجاجها حول الإرث مع أبي بكر وهضم حقها قائلة: ((فدونكها مخطومة مرحولة تلقاك يوم حشرك فنعم الحكم الله والزعيم محمد والموعد القيامة وعند الساعة يخسر المبطلون ولا ينفعكم إذ تندمون ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه

ويحل عليه عذاب مقيم))[٣٦]

فالحقوق تسترد حتى ولو كان ذلك بالقيامة وعند ذاك سيحكم الله بينها وبين من غصب حقها واستعارت لذلك بالناقة المخطومة((تريد أنه أخذ حقي وهو كالناقة المشدودة بالخطام التي تقاد قهرا والمقاربة للرحيل التي لا يمكن الانتفاع بها))[٣٧]

وتمثيل المعنويات بالمحسوسات يزيد من تمكنها في النفوس.

النهاية الموعِدة

وفي نهاية حديثها مع الأنصار يبرز الاقتباس القرآني واضحا ومعبرا عن موقف التذكير بعاقبةالأمور قائلة:((فدونكموها فاحتقبوها دبرة الظهر، نقبة الخف، باقية العار، موسومة بغضب الله وشنار الأبد موصولة بـ ﴿نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ ۞الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾[٣٨] فبعين الله ماتفعلون ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾[٣٩] وأنا ابنة: ﴿نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[٤٠] ﴿إِنَّا عَامِلُونَ ۞ وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾[٤١]))[٤٢].

أي خذوا الخلافة جيلا بعد جيل معيبة ناقصة لأنها مغصوبة عن وليها والمستحق لها مع استحقاق غضب الله عليكم والعار الذي يلحق بكم بسبب سوء أعمالكم، وإحالة أمرهم إلى الله عبر استعمال الكناية(عين الله) كناية عن شهادة الله عليهم وإحاطته بأعمالهم وببلاغة الايتوس والتضفير الخطابي تنهي خطابها معهم وبمفردة الانتظار انتظار اليوم الذي يُحاسب فيه الظالمون على أعمالهم وانتظار اليوم الذي تسترد فيه الحقوق.

الخاتمة

بعد الجولة في النهايات لابد لنا من تسجيل خلاصة لما ذكر في هذه الدراسة

١- للنهايات مكانة مهمة في الخطاب وليس هي مجرد تحسين يرد فيه.

٢- تحمل النهايات في الخطاب خلاصته والغاية التي لا كلام بعدها.

٣- النهايات متنوعة في الخطاب الفاطمي بعضها يكون بحسب الموقع الجغرافي في الخطاب والمتلائم مع ما قبله وبعضها يكون بحسب الموضوعات.

٤- هناك فنون بلاغية متداخلة تؤطر النهايات بإطارٍ يزيد من تمكينها في النفوس مثل الاستعارة والمجاز.

٥- النهايات الجغرافية في الخطاب كانت أكثر تأثيرا ؛ لأنها آخر ما يطرق السمع.

٦- هناك فنون منها التذييل تؤدي دور النهاية حتى وإن كان بطريقة بارعة ومعبرة.

٧- كثرة الاقتباس القرآني في النهايات لما يمتلكه من سلطة على المتلقي وأيضا يشكل داعمًا مهمًا لحجة الخطاب وإعلاء بلاغته.

الهوامش:

١- ينظر : الطراز ٣/ ١٠٤.

٢- سورة محمد :٤.

٣ - سورة غافر: ٧٨.

٤- الاحتجاج : ٧٤.

٥- علم النص : ٤٦.

٦- ينظر: خطب سيدات البيت النبوي حتى نهاية القرن الأول الهجري دراسة موضوعية وفنية : ١٥٩-١٦٠.

٧- فن الخطابة : ١٤٣.

٨- ينظر: النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية:١٨.

٩- الاحتجاج :٧٤.

١٠- الاحتجاج : ٧٤.

١١- يمد التوازي الخطاب بطاقة إيقاعية ذات نغمة احتجاجية واضحة المتمثلة بتتابع المتواليات ينظر: البلاغة الثائرة:١٢٤.

١٢- بلاغة الإقناع في الخطاب النقدي القديم : ١٥٠.

١٣- سورة الجاثية: ٢٧.

١٤- سورة هود : ٢٨.

١٥- الاحتجاج ٧٥.

١٦- تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي : ٢٦٢.

١٧- الاحتجاج : ٧٥.

١٨- المشروع البلاغي لمحمد مشبال بلاغة الحجاج : نحو مقاربة حجاجية لتحليل الخطابات : مقال من الانترنت.

١٩- الخطابة : ٢٥٣.

٢٠- أدب الشريعة الإسلامية : ١٩٢.

٢١- الاحتجاج : ٧٠.

٢٢- الطراز : ٣/ ٦١.

٢٣- سورة فاطر : ٢٨.

٢٤- الاحتجاج :٧١.

٢٥- الاحتجاج : ٧٠.

٢٦- سورة الأعراف :٩٦.

٢٧- الاحتجاج : ٧٥.

٢٨- تقنيات خطاب الضد في كلمة السيدة الزهراء عليها السلام لنساء المدينة بحث ضمن مجلة الباحث :

٤٨٨.

٢٩- سورة التوبة ٤٩.

٣٠- الاحتجاج : ٧١-٧٢ .

٣١- الطراز :٣/ ٩٤.

٣٢- معرفة مذهب أهل البيت من خطبهم : ١٤٩.

٣٣- سورة غافر: ٧٨.

٣٤- الاحتجاج : ٧٤.

٣٥- الاحتجاج ٧٥.

٣٦- المصدر نفسه : ٧٢.

٣٧- معرفة مذهب أهل البيت من خطبهم : ١٥٤.

٣٨- سورة الهمزة :٦

٣٩- سورة الشعراء ٢٢٧.

٤٠- سورة سبأ : ٤٦.

٤١- سورة هود : ١٢٢.

٤٢- الاحتجاج : ٧٣.

المصادر والمراجع:

١- القرآن الكريم

٢- الاحتجاج ،أبو منصور أحمد بن علي الطبرسي، د.ط، د.ت.

٣- بلاغة الإقناع في الخطاب النقدي القديم، صلاح حسن حاوي، الشركة العربية المتحدة للتسويق، القاهرة،ط١، ٢٠١٦.

٤- أدب الشريعة الإسلامية، د. محمود البستاني، مؤسسة السبطين العالمية، ط١، ١٤٢٤هـ.

٥- خطب سيدات البيت النبوي حتى نهاية القرن الأول الهجري دراسة موضوعية فنية، زينب عبد الله الموسوي، إصدارات العتبة الحسينية المقدسة ،ط١، ٢٠١٧.

٦- البلاغة الثائرة خطاب الربيع العربي عناصر التشكل ووظائف التأثير، مجموعة من الباحثين، تقديم د. سعيد العوادي، دار الرافدين، بيروت ،ط١، ٢٠١٧.

٧- الطراز، يحيى بن حمزة العلوي اليمني، تحقيق: د. عبد الحميد الهنداوي، منشورات ذوي القربى، ط١، ١٤٣٣هـ.

٨- فن الخطابة، الدكتورأحمد الحوفي، نهضة مصر للطباعة والنشر، د.ت.

٩- الخطابة، أرسطو طاليس، تحقيق: الدكتور إبراهيم سلامة، مكتبة الانجلو مصرية، ط٢، ١٩٥٣.

١٠- المشروع البلاغي لمحمد مشبال بلاغة الحجاج: نحو مقاربة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات، د. مها بنسعيد، مقال على الانترنت.

١١- النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، محمد طروس، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ٢٠٠٥.

١٢- بلاغة الخطاب التاريخي، مجموعة

من الباحثين ، إعداد محمد مشبال ، دار كنوز المعرفة، الأردن، ط١، ١٤٣٩.

١٣- مذهب أهل البيت عليهم السلام من خطبهم، علي السيد محمد حسين الحكيم، دار المتقين، بيروت، ط١، ٢٠١٣.

١٤- تقنيات خطاب الضد في كلمة الزهراء عليها السلام إلى نساء المدينة ، بحث ضمن مجلة الباحث التي تصدر من كلية التربية للعلوم الإنسانية - جامعة كربلاء ع٣١، ٢٠١٩.